

الصورة في أدب الجاحظ (كتاب القيان أنموذجاً)

The image in the literature of Al-Jahiz (The Book of Qian as a Model)

Mariam Abdunabi Abdul Majeed

Basra and Arabian Gulf Studies/ The University of Basrah, Iraq
rakotaje@yahoo.com

Published: 29 Jun 2021

To cite this article (APA): Abdul Majeed, M. A. (2021). الصورة في أدب الجاحظ (كتاب القيان أنموذجاً). *SIBAWAYH Arabic Language and Education*, 2(1), 117-124. <https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol2.1.9.2021>

To link to this article: <https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol2.1.9.2021>

الملخص

شكلت الصورة محوراً أصيلاً في نصوص الجاحظ، للتعبير عن مواضيع شملت الإنسان والكون، وقد استند في رسم صورة القيان على آليات خاصة تميّز بها لتوصيف الآخر والأشياء، وملاحظها المادية والمعنوية وصلته بها، باستلهاً تفاصيل تحدد هويتها وأساليب حجاجية ترتبط مع كينونة تموضعها في الواقع، كما اتكأ نصه في هذا المدى على مواضع تواصلية، لتوجيه المتلقي والتأثير عليه لتبني الرؤية التي يتبناها خطابه، عبر إطار الإقناع بتنوع الحجج والإحالات، أو الاستشهادات التي يستلها من علماء أو شخصيات سلطوية أو دينية أو اجتماعية، أو ردها إلى القرآن الكريم والحديث النبوي، حيث تمتلك هذه الأنواع سلطة كبرى، تترتب على برهان قوي يؤيد رؤيته ويبرزها.

كلمات مفتاحية: الجاحظ، القينة، الصورة، الخطاب، هوية

Abstract

The image formed an intrinsic focus in texts of Al-Jahiz, to express topics that included the human being and the universe. It was based on drawing the image of Qian = (the female singers) on special mechanisms which distinguished by it to describe others and things, and its material and moral features and its link to it inspired by details that define her identity and argumentation methods that are associated with an entity that is located in reality. His text in this term leaned on communicative Links, to guide and influence the recipient to embrace the vision that his speech embraces, by persuading the diversity of arguments, and the citations it extracts from scholars or authoritarian, religious or social figures, or its response to the Holy Quran and the hadith where these species possess great power who whose a strong evidence to support and highlight his vision.

Keywords: Al-Jahiz, Al-Qina, Image, Speech, Identity

مقدمة

حفلت كتابات الجاحظ بأبعاد بلاغية متميزة وتمكّن من اللغة ومعطياتها ورسم الصور بامتياز، جعله من كبار كتّاب العربية إلى وقتنا الحاضر.

أما الصورة فقد شكّلت محوراً أصيلاً في نصوصه، لاستجلاء مواضيع متعددة شملت الإنسان والكون، وكانت تشتغل في مدى يتواشج مع آليات خاصة تميّز بها في حدود تتعلق بتوصيف الآخر والأشياء، وسماتها المادية والمعنوية وعلاقته، إذ يستجلي عبرها رسم تفاصيل ممكنة لتحديد سمات تعالقت مع تقنيات وأساليب حجاجية، ترتبط مع مقومات كينونة الموضوع المراد تصويره، إذ يستند نصه في رسم الصور على سياقات ترتبط مع جدلية تحيل على مواضع تواصلية، تتمركز عليها صورته لإبراز رسالة معينة يريد توصيلها، إذ تعمل على تأكيد توجه خاص، ومنظور يُعنى بالكشف عن طبيعة نظرتة المتلاحمة أو المضادة لأنساق ثقافية مجتمعية أو سياسية أو دينية أو غيرها، تتحدد في توجيه المتلقي والتأثير عليه لتبني النظرة التي يشي بها خطابه، عبر إطار الإقناع بتنوع الحجج والإحالات والاستشهادات، بالأقوال التي يستلها من علماء أو شخصيات سلطوية أو دينية أو اجتماعية، أو ردها إلى القرآن الكريم والحديث النبوي حيث تمتلك هذه الأنواع سلطة كبرى، تترتب على برهان قوي يتكئ عليه في رسم الصور، ولذا تشكّلت نصوصه في قالب صوري يتوخّى خطاباً تواصلياً في استحضار الموضوع المراد رسمه بأنواع متعددة من أساليب اللغة.

ولاستجلاء هذا المدى في رسم صورة القيان تبدى الآتي:

أولاً: تقديم الجاحظ لكتابه في القيان

قدّم الجاحظ كتابه في القيان باسم مجموعة من الأشخاص قال: "من أبي موسى بن اسحاق بن موسى، ومحمد بن خالد..." (الجاحظ، رسائل الجاحظ، (تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ج2، ط2، د.ت، ص143)، وقد رفع الجاحظ بهذا النص من قيمته إلى العلى، بينما حطّ الجاحظ بهذا النص من قدر الأشخاص الموجه إليهم النص بقوله: "إلى أهل الجهالة، وغلظ الطبع، وفساد الحسن" (الجاحظ، ص142)، وفي هذه المقدمة التي صدرّ الجاحظ نصّه بها تبينّ انحيازه لآراء المرسل بصورة متمركزة، "والتمركز نمط من التخيل المترفع الذي يجبس نفسه ضمن رؤية مقررة سلفاً، فلا يقارب الأشياء إلاّ عبرها، ويوظّف المعطيات كافة من أجل تأكيد صحة فرضياته" (إبراهيم، عبدالله، المركزية الإسلامية، (الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، دار الأمان-الرباط، ط1، 2010م، ص12)، فقد تبني الجاحظ لما أورد الآخر في قيمة القيان التي تبدت بجانبها النفسي والمادي في النص، وقد جاءت صورة القيان وتوصيف ما تملكوه من مقدرة ومهارات وملامح روحية وجسدية على شكل حوار، تبنى نقض دعوة آخر بتحريم اقتنائهنّ وإيراد موقف مضاد وهو القول بتحليل ذلك، عبر قصص ومواقف وأحداث وشخصيات جُمعت للدلالة على ذلك في النص بمجمله، وفي ذلك العرض

أورد الجاحظ فضلاً عن صورة القيان رسم صورة المقيّن ومصطنعهم مع الثناء عليه ومدحه قال: المقيّن "يستقرض إذا أعسر ولا يُرد، ويسأل الحوائج فلا يُمنع، ويُلقَى أبداً بالإعظام، ويُكْتَى إذا نودي، ويُفدَى إذا دُعِيَ، ويُجَيّ بطرائف الأخبار، ويطلّع على مكنون الأسرار، ويتغايّر الربطاء عليه، ويتبادرون في برّه، ويتشاحون في ودّه، ويتفاخرون بإيثاره، ولا نعلم هذه الصفة إلّا للخلفاء..." (الجاحظ، ص 178)، لصياغة رأي مناقض للآخر ملتزماً دلالات حجاجية كفايتها لرد دعوى الآخر والتغلب على حججه، وإثبات صدق رأيه عبر جدال تناول فيه القيمة البلاغية الموجهة، "فالعربي يحب لغته إلى درجة التقديس، وهو يعتبر السلطة التي لها عليه تعبيراً ليس فقط عن قوتها، بل عن قوته هو أيضاً" (الجابري، محمد عابد، (تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط10، 2009، ص75)، لقد أورد الجاحظ هذا المدى لإثبات رأيه المتلاقح مع بُعد تداولي مع المتلقي وإشراك للقارئ الثقافي في صياغة البُعد النسقي في هذا الجانب من المجتمع، الذي كان يكثر في عصر الجاحظ وما تلاه وهو جانب اللهو والاختلاط بالقيان، يقول الجاحظ: "وقد كنا ممسكين عن القول بحجّتنا فيما تضمنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكتفٍ بظهوره، مبين عن نفسه، مستغن عن أن يُستدل عليه بغيره، إذ كان إنما يُستدل بظاهر عن باطن، وعلى الجوهر بالعرض، ولا يحتاج أن يُستدل بباطن عن ظاهر. وعلمنا أن خصمائنا وإن موهوا وزخرفوا غير بالغين للفلج والغلبة عند ذوي العدل دون الاستماع منا، وأن كل دعوى لا يفلح صاحبها بمنزلة ما لم يكن، بل هي على المدعي كلٌّ وكرب حتى تؤديه إلى مسرّة النجاح أو راحة اليأس" (الجاحظ، ص 144، 145).

ثانياً: صورة القيان بين الخطاب والحوار

صورة القيان في كتاب الجاحظ تعتمد على خطاب وحوار متضاد بين بُعدين، يمثل الأول تحريم تملّك القيان والاستمتاع بالمجالسة معهن، ويمثل الآخر المضاد تحليل ذلك وتحليل مهنة المقيّن ومدحها، وقد تبني خطاب النص جديلاً أظهر فيه ما تتملكه القيان من ملامح باهرة، وإباحة الاستمتاع بها لإقناع المتلقي بتحليل ذلك عبر حجج وآثار متعددة، أما قضية النظر والمجالسة والمحادثة وأمر إباحتها فقد تجلّى عبر استلهاهم مديات من التاريخ العربي، وأخبار وحيثيات تحيل على توصيف هذا المحور، مع استجلاء صورة القينة بوصفها امرأة متميزة، وتوصيف جوهر العلاقة معها في سياقات الثقافة النسقية لدى العرب وفي الإسلام، إذ "إن الأنساق المختلفة انطلقت من نسق واحد، هو المجتمع، وعليه فإنها ترجع إليه بعدما انطلقت منه، إذن كل نسق يحمل سمات أو سمة ما من أبيه بالوراثة" (مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1996، ص159)، يقول الجاحظ: إن الرجال ما زالوا يتحدثون مع النساء في زمن الجاهلية والإسلام، إلى أن فرض الحجاب على زوجات النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) خاصة، وكانت شرائف نساء العرب يقعدن للحديث مع الرجال، ولم يكن النظر بينهم عاراً في الجاهلية أو حراماً في الإسلام، وأن النساء من بنات

الخلفاء وأمها تهن يطفن بالبيت الحرام مكشوفات الوجوه، إذ لا يكمل الحج إلاً بذلك، ولم تزل القيان عند ملوك العرب والعجم على وجه الدهر، وكانت الفرس تعد الغناء أديباً والروم فلسفة (ينظر: الجاحظ، ص 149-158)، فتبنى الجاحظ مدخلات في خطابه الذي تبدى بصورة حجاجية التزم فيها لغة حوارية خاصة، استلهم فيها مُسلمات خاصة لإقناع الآخر بصدق دعواه، وإنتاج صورة لهذا المدى تتحرك مع توصيف خاص للقينة وما فيها من سمات، عبر تقديم توحى بيان حقيقة الوجود الأساسي للمرأة والرجل في الكون، وما بينهما من تعلق وجودي في أصل التكوين الخُلقي والخُلقي يقول الجاحظ: إن الفروع بلا شك راجعة للأصول، وتكوينات الكون متمازجة بالمشكلة ومنفردة بالتضاد، وبعضها سبب لبعض، مثل الغيث الذي هو علة السحاب والسحاب الذي هو علة الماء والإنسان علة للإنسان، والفلك وكل ما يحتويه الكون في الأرض هو خول ومتاع للإنسان، وأن أقرب ما سُخر إليه من روحه الأثنى لأنها حُلقت له ليسكن إليها، وجعل بينه وبينها المودة والرحمة، وواجب أن تكون هي كذلك وأن يكون هو أحق وأولى بها من سائر ما حُول، لأنها مخلوقة منه، وهي بعض له وجزء من أجزائه، وبعض الشيء أشكل ببعض وأقرب، فالنساء بذلك حرث للرجال مثل النبات الذي هو رزق لما جعل رزقاً له من الحيوان، ولولا التحريم والمواريث لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر، فالزرع مرعى لأبناء آدم ولسائر الحيوان إلاً ما حُرّم منه (ينظر: الجاحظ، ص 146، 147)، لقد بيّن الجاحظ طريقة التلاحم بين الرجل والمرأة مع تمثّلات كونية من الطبيعة تُحيل إليه وإليها، عبر صور تتعالق مع مدى جسمي ونفسي يُبين من خلاله ما يكتنف الرجل والمرأة من ملامح تشير إلى خلقهما وما فيهما من تمظهرات وحاجات.

فقد تجلّى في القول بإباحة النظر إلى القيان معنى عياني أحال به الجاحظ مدى الصورة إلى فضاء، يتضمن مفاهيمها استلها من القرآن والسنة بالقول بالمباح المطلق، قال: "وكل شيء لم يوجد محرماً في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباح مُطلق، وليس على استقبال الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلاً على حسنه، وداعياً إلى حلاله... والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام، أن المرأة المعتّسة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك، فلو كان حراماً وهي شابة لم يجلّ إذا عنست، ولكنه أمر أفرط فيه المتعدون حدّ الغيرة إلى سوء الخلق وضيق العطن، فصار عندهم كالحق الواجب... وكذلك مكاملة القيان ومفاكهن، ومغازلتهم ومصافحتهم للسلام، ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر، حلال ما لم يشب ذلك ما يحرم، وقد استثنى الله تبارك وتعالى اللّم فقال: (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاً اللّم إن ربك واسع المغفرة)... (الجاحظ، ص 147-164).

وقد كان استلها الجاحظ للمعطيات آنفة الذكر يتجلّى في صورة خاصة في مدى الاختلاط بين الرجل والمرأة كونه مباحاً، ويورد أحداثاً من الواقع العربي ومخزونه الثقافي، و"لاشكّ في أن المخزون الثقافي هو الذي يُقدم رؤية للعالم لا يمكن تخطيتها بسهولة" (مفتاح، محمد، ص 114)، كما أن إحالة الجاحظ إلى بعض الشخصيات لتدعيم هذا الأثر تتمظهر فيها صورة خاصة للقينة وللمرأة عامة، ومنها قوله: إن لم يكن بين رجال العرب والنساء من العرب حجاب، ولم يكن بينهم النظر الخاطف إنما كانوا يجتمعون بالحديث والسمر وبحضور الأولياء والأزواج، ومن

ذلك يذكر عدداً من العشاق الذين اشتهروا في تاريخ العرب مثل جميل بثينة قال: لم يكن بينهم ذلك العشق لولا اجتماعهم على المحادثة معاً، ومن الأشخاص الذين احتجّ بمكانتهم في الإسلام ممن كانوا يملكون القيان يذكر: عبدالله بن جدعان، وعبدالله بن جعفر الطيار، ويزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك، والوليد بن زيد، وعمر بن عبدالعزيز (ينظر: الجاحظ، ص 148، 158-160).

ثالثاً: هُوية القينة

تجلت في القول بالتواصل مع القيان في نص الجاحظ مشاهد تحيل على توصيف جسمي ونفسي لهنّ، عبر سرد تبنى فيه الجاحظ إيراد قصص وأخبار في هذا المدى تشير إلى الواقع المجتمعي، ف "النص هو محاولة لوصف كل الممارسات الإنسانية في جانبها التواصلي والمعرفي وتعتبر الدليل المادي على النشاط الفكري" (خمرى، حسين، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر-العاصمة، ط1، 2007م، ص 47)، فتجلت في نص الجاحظ خصائص وسمات وقضايا أفصح بها عن علائق وأحداث تحيل لهوية القينة وبراعتها وصلتها بالرجل، والمحرك لهذا المدى الذي تولى بالضرورة كيفية تحقيقه لمصلحة خاصة تكشف عن الاتجار باللهو واللذة، لأجل غاية مادية في بنية أفصح بها الجاحظ عن جانب خطير في المجتمع، بتقنيات وآليات وخطاب يجهر عن عمق الصلات التي كانت قائمة آنذاك بين القينة ورجال المجتمع، قال: "والحسب والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرغيبية إنما الهوى، ولو اشترى على مثل شري الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الرأس الساذج، فأكثر من بالغ في ثمن جارية فبالعشق ولعله كان ينوي في أمرها الريبة، ويجد هذا أسهل سبيلاً إلى شفاء غليظة ثم تعذر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينوّه ويعرف فضله، فباع المتاع وحلّ العقد وأثقل ظهره بالعبية حتى ابتاع الجارية" (الجاحظ، ص 165).

كما ذكر الجاحظ ما كان بين المقيّين والرجال ممن يتوخون الفوز بالقيان اللواتي يصطنعنّ والتمتعّ معهنّ، في مدى إبلاغي يشفّ عن معاني ومقومات نفّست في المجتمع في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري، يقول الجاحظ: "لا يعمل عملاً ينتج خيراً غير إغرائه بالقيان وقيادته عليهنّ، فإنه لا ينجم الأمر إلاّ وغايته فيهنّ العشق، فيعوق عن ذلك خبط الموالي ومراعاة الرقباء وشدة الحجاب، فيضطّر العاشق إلى الشراء، ويحلّ به الفرج" (الجاحظ، ص 165، 166)، وفي هذا السياق تبدّت صورة القينة وما تجيده من حيل لاجتلاب الرجال في دلالات تؤكد حضور البراعة واللياقة اللازمة لديها، وفي هذا الجانب أفصح الجاحظ عن صورة خاصة للقيان تحضر بامتياز، فيقول: "إذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشطت للشرب عند شربه، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه، فإذا أحسّت بأن سحرها قد نفذ فيه، وأنه قد تعقّل في الشرك، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها، ثم كاتبته تشكو إليه هواه... وربما قادها التمويه إلى التصحيح، وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى

تأتي إلى بيته فثُمَّكَنه من القُبلة فما فوقها، وتفرشه نفسها إن استحلَّ ذلك منها... وليس يحسن هاروت وماروت، وعصا موسى، وسحرة فرعون، إلاّ دون ما يحسنه القيان... " (الجاحظ، ص 171-175).

وقد تجلّى الوصف في كتابات الجاحظ متكئاً على حجاج يستند على وصف جزئيات تحيل على مدح أو ذم، وفي كتاب القيان تجلّى الوصف مع فعل القصّ الذي يكشف عن وقائع خاصة، ويحيل على حكم يتبنى المناحي الكفائية والجمالية للقينة، حيث تولى ترسيمها بتشكيل يروم غاية خطابية أصيلة في إنشاء النص وهو تحليل التواصل معها، فبيان القيم التي تتوخى عرض مناحي التفوق يعد مدحاً تكون فيه القينة إيقونة بملامح إيجابية متعددة، موجهة لإفحام الآخر، وكذلك باستلاله صفات وأفعال يبني الجاحظ عليها صورتها بامتياز، فتكون مجالاً لعرض يتركز على أثر مُضمّر يتبنى قصداً لإظهار صورة نموذجية وإبرازها بشكل ملفت، بانتقاء خاص وتأطيرها بأمثلة وأخبار تؤكد هذا المبنى، وتُجسد تركزها فيهنّ، من ذلك قوله: "إذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغني حدّق إليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، وألقى القلب إليها الملك، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيان عند حبة القلب فيفرغان ما وعياه، فيتولّد منه مع السرور حاسة اللّمس، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قطّ، ولم تؤد إليه الحواس مثلها، فيكون في مجالسته للقينة أعظم فنة (الجاحظ، ص 171).

وعبر مواضع خاصة تستند على آلية لغوية تميّز بها الجاحظ تتمثّل في توجيه الخطاب إلى آخر يعتمد على حجاجه، و"تستمد رسائل الجاحظ جزءاً من حجاجيتها من ارتكازها على قيم ومواضع مفضلة عند المتلقي الذي يخاطبه سواء أكان فرداً أم جماعة، والقيم والمواضع ليست حجاجاً بالمعنى التقني للفظ، بل هي المحتوى الذي ينتظم في علامات أو قوالب تسمى الحجج، ولا يمكن أن تقوم هذه الحجج وتعمل في خطاب، دون المحتوى الذي يمثل الاتفاق المسبق بين المتكلم والمتلقي" (مشبال، محمد)، (خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقارنة بلاغية حجاجية، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط1، 2015م، ص 166)، كان الجاحظ يوشّحه بتمييز عناصر منطقية وعلامات ومواقف ترتبط ضمناً بالقيان، وتبعث على بثّ شعور معين واتخاذ موقف يعمل على حضور خاص لهنّ، يتضمنن المتعة واللّهو، حيث يقترن هذا المدى مع الوصف الذي يستجلي نمطاً خاصاً من الظهور للمرأة، ومنه قوله: "تروي الحاذقة منهنّ أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت،... بُنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والغش والصبوة، والشوق والغلّة، ثم لا تنفكّ من الدراسة لصناعتها مُنكبة عليها، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة" (الجاحظ، ص 176)، وقد تجلّى في خطاب كتاب القيان وصف الجاحظ للأثر الذي تتركه القيان على الآخر، من خلال ترسيم ما تفعله من حيل تحيل على قيمة خاصة تتملّكها، ومنها ما تجيده في الغناء الذي يجذب النظر إليها مع السمع والقلب مُستجلية السرور واللذات كما مرّ سابقاً، معتمداً على حجة تتمثّل فيما تعطيه هذه القينة من إيجاءات لذات تستجلبها لحواسّ الآخر الرجل، بما تمتلكه مقارنة بباقي الأشياء والموجودات التي لا تجتمع فيها تحريض جميع هذه اللذات مع بعضها البعض، وقد

تجلى في هذه الصورة حجاج يتمثل الكم الذي تتملكه القينة وما تعطيه من لذة في كتلة واحدة من اللذات الحسية وفي آن واحد، وفي هذا المدى قارب الجاحظ بين لذة القينة وباقي الأشياء الأخرى التي لا يمكن لها أن تجمع هذه اللذات الحسية معاً في آن (ينظر: مشبال، محمد، ص 107)، بينما تبتدى القول باللحظ والتبسم وأشعار الغناء وغزلها به وشربها وشوقها وصبايتها وحزنها سحر تستخدمه لجذب الرجل، بوصفها مادة تستلّ بها وشبكة تعلق الآخر وتستثمر متتالياته لإحكام السيطرة عليه، وهذه الأبعاد يشير بها الجاحظ إلى نوع من الحيل التي تتقنها القينة بوصفها غير لإغراء الآخر وغوايته، وقد أخذت هذه الصورة إطارها عبر الوصف الذي يحيل على ما تنتهجه القينة من أفعال تدلّ على غايتها الأساس وهي الفتنة، و"أضحت الغيرية رديفة لمفهوم الصورة على اعتبار أننا ندرك الآخرين عبر تشكلات صورية تخضع لإجراءات التحوّل والانتقال والمفارقة" (ماجدولين، شرف الدين)، (الفتنة والآخر، أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت، لبنان - منشورات الاختلاف - الجزائر العاصمة، الجزائر -، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م، ص24)، وقد تجلّى هذا المعنى في خطاب الجاحظ عبر سرد وقائع وأحداث تضمّ في ثناياها إعجاباً بالقينة وإعلاء لما تتملكه من سحر، فضلاً عن مدح قيمتها التفضيلية بإجادة هذا الفعل كونه أعظم سحر في التاريخ كما مرّ آنفاً، "تتعزّز هذه الحجة السببية العامة بسرد وصفي مفصل لأفعال القينة الدالة على غوايتها وممارستها للفتنة والسحر، هذا السرد الوصفي هو بمنزلة حجة الوقائع الملموسة المؤكدة للحجة السببية والموضحة لها، ولا شكّ أنه وصف يضم امتداداً للقينة وإعلاء من قيمتها" (مشبال، محمد، ص 108، 109)، وفي هذا المدى يرد الجاحظ مقدرة القينة ومهارتها على الحفظ وتوجهها لجذب الآخر وفتنته، وهي صورة تتشكل عن وصف خاص يرد من قياس مضمّر للوصول إلى نتيجة متوخاة فيها بدءاً، وكانت الإحالة عليه واردة بوصف سلوكها ومقدرتها العالية للتعلّم، وتتمثّل صيغة جدلية لإضفاء مزيد من التفوق الذي تتملكه، وقد "برع الجاحظ بقابلية على الجدل لم يجاره أحد من معاصريه فيه، ويقوم منهجه على نوع من التسلسل المنطقي... هذا التسلسل هو قابلية الجاحظ على الجمع بين اللسان والعقل وكأني به يختلس سبل المنطق ومناهجه ليوصلك إلى نتائج غير لازمة دائماً لمقدماتها، ومع هذا أنت مقتنع بما بصورة من الصور" (النجم، وديعة طه، (أدب الجاحظ بين التقليد والتوليد، مجلة البيان، رابطة الأدباء في الكويت، ع74، مايو، 1972، ص54).

وكان وصف الجاحظ لتمكّن القينة في صناعتها يشير إلى حرص القينة على صناعتها وفتنتها بها، للحصول على هالة من الشيوخ والحضور في المجتمع، يقول: "وهي مضطّرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جفتها تفلّنت، وإن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكل واقف في إلى نقصان أقرب، وإنما فرق بين أصحاب الصناعات وبين لا يحسنها التزديد فيها، والمواظبة عليها، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه، ولو بغت العقّة لم تقدر عليها، وإن ثبتت حجة أبي هذيل فيما يجب على المتفكر زالت عنها خاصته، لأن فكرها وقلها ولسانها وبدنها، مشاغل بما هي فيه، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن يلي مجالستها عليه وعليها" (الجاحظ، ص 176، 177)، وكان توصيف الجاحظ بهذا الإطار يتّسم بجدل وتكرار وإحالة للدلالة على تمركز هذا الوصف في

القينة عبر صيغ بلاغية وإبلاغية وحجج وصور تحيل على التركيز عليه، وإعلائه، "ومن الأسلحة التي تعتمد عليها الإيديولوجيا ولا تستغني عنها إطلاقاً: اللغة وتحديداً البلاغة والصورة، إذ أن للبلاغة سحرها، والسحر يركز الانخراط الوجداني" (مفتاح، محمد، ص 91)، عبر نسق تجلي في كتاب القيان (ينظر: عبدالنبي، مريم، تمثلات الهوية في تراث الجاحظ دراسة في ضوء النقد الثقافي، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 2018، ص 197) الذي يهدف إلى وصف القينة والدلالة على ما تمتلكه من مهارات وفنون مضادة لصوت آخر يُجرم التواصل معها، أو مجالستها، فكان المديح أو الإعلاء وبيان الصفات وتضخيمها وإعادة تكرارها أسلوباً تميز به الكتاب لإظهار قيمتها الإيجابية غالباً.

المصادر

- د. إبراهيم، عبدالله، المركزية الإسلامية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، دار الأمان-الرباط، ط1، 2010م.
- د. الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط10، 2009.
- الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح، عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ج2، ط2، (د.ت).
- د. خمري، حسين، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر-العاصمة، ط1، 2007م.
- عبدالمجيد، مريم عبدالنبي، تمثلات الهوية في تراث الجاحظ دراسة في ضوء النقد الثقافي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2018.
- ماجدولين، شرف الدين، الفتنة والآخر، أنساق الغيرية في السرد العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون(بيروت-لبنان)، منشورات الاختلاف، (الجزائر العاصمة-الجزائر)، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م.
- د. مشبال، محمد، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ مقاربة بلاغية حججانية، دار كنوز المعرفة، عمّان، ط1، 2015م.
- د. مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1996.
- د. النجم، ودیعة طه، أدب الجاحظ بين التقليد والتوليد، مجلة البيان، رابطة الأدباء في الكويت، ع74، مايو، 1972.